الكتابة التاريخية الخلدونية

ـ الدولة الحمادية ونظمها بالمغرب الأوسط نموذجا ـ

أ. موسى هيصام

المركز الجامعي بالمدية

مقدمة:

ما أجل عند الأمة الحية من الاحتفاظ بذاكرتها التاريخية، والبحث في رصيدها التراثي الثقافي والعلمي، وتخليد قيمة رموزها الوطنيـــة والقيميـــة، فـــي مـــسعاها لاستعادة مكانتها الحضارية بين الأمم.

وليس هناك ما هو أسوأ من أن تفقد الأمة ذاكرتها اتجاه تاريخها ورموزها، ومصادر قيمتها سوى أن يبقى هذا التاريخ مغيبا عن ثقافة أجيالنا، حاضرة في ذاكرة غيرنا.

والعلامة الفذ عبد الرحمن بن خلدون واحد من رموز الأمة بما أرسى لها من قواعد لعلوم شتى وإنجازات حافلة في مجال الدراسات الإنسانية، إن على المـــستوى الفكري أو الفلسفي أو التاريخي أو العمراني أو الاجتماعي. والتي لا تـــزال مادتهـــا الخام تمثل لبنة لمختلف الدراسات المعاصرة التي نقبت عن كنوز مادتـــه العلميـــة، وأثرت فكرة النير بالزخم الكبير من المؤلفات والأطروحات التي شملت التخصـــصات العلمية المختلفة.

ومن بين المجالات العلمية الهامة التي أشهرت العلامة ابن خلدون ودفعت به إلى الشهرة " علم التاريخ" أو "فن التاريخ" كما اصطلح تسميته.

لقد جدد ابن خلدون قواعد هذا العلم في محاولة منه لإثبات أن التاريخ معرفة علمية دقيقة غنية بتجارب الأمم والشعوب في مسيرتها الإنسانية، التي لا تقل في مصداقيتها وعلميتها وصحة وسائلها عن مناهج العلوم الأخرى، لينتقل بالمدرسة التاريخية العربية الإسلامية من حالة السرد، والمزج بين حوادث الزمان وأوضاع المكان "علم المسالك والممالك" أو الرحلات، إلى النقد التاريخي الذي يستند إلى المصادر الموثوقة، سواء كانت مادية أو معنوية (الرواية الشفوية)، موظفا في ذلك علم "التجريح والتعديل".

بما يسمى اليوم بالنقد الخارجي والباطني للوثيقة التاريخية، مع تركيزه على إعمال العقل في مختلف مراحل إنجاز المادة التاريخية، وبناء عليه تم إنجاز موضعنا منهجيا كالتالي :

- مقدمة .
- التعريف بالمنهج التاريخي الخلدوني.
- أهمية العلاقة بين بيئة المؤرخ وطبيعة كتاباته التاريخية.
- معالجة ابن خلدون لمادته التاريخية (الدولة الحمادية ونظمها بالمغرب الأوسط نموذجا) .

التعريف بالمنهج التاريخي الخلدوني:

يعرف ابن خلدون التاريخ فيقول: " اعلم أن فن التاريخ فن عزيز المذهب، جم الفوائد، شريف الغاية، إذ هو يوقفنا على أحوال الماضيين من الأمم" حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدنيا والدين" [1]

فهو بمنطلقه هذا ينقل هذا العلم من حالة السنين وما وقع فيها من الحوادث من غير اتصال ولا رابطة في المكان، على نسق ومنهج ابن جرير الطبري في كتابه "تاريخ الأمم والملوك"، وابن الأثير في كتابه "الكامل في التاريخ"، إلى فهمه ليس

على أنه مجرد أحداث وظواهر اجتماعية وسياسية واقتصادية، بل استنطاق روح الشعوب وحياة الدول، ومقاومات الأمم من حيث عقيدتها، وحضارتها ومدنيتها وثقافتها.[2]

فانطلاقا من "مقدمة" كتابه " العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر"، نقل الكتابة التاريخية من وصف الوقائع السياسية والحربية إلى أعمال العقل في استنطاق الفكر العلمي والديني والاجتماعي، والمتمثل أساسا في جعل الإنسان محور حركة التاريخ، بما تساهم به البيئة على تنوعها في إنشاء العمران الإنساني، فانتقل إلى موقع الناقد للأحداث مستخلصا العبر والدروس من حياة الأمم والشعوب السابقة لتكون مجالا خصبا تتم به فائدة الاقتداء، فأسس بذلك لتنظير جديد لم نعهده عند سابقيه من المؤرخين، تنظر لدور العصبية في لمّ اللحمة فجعلها أساس انعقاد الملك وديمومته "أن المغالبة والممانعة إنما تكون بالعصبية لما فيها من النعرة والتذامر".[3]

فهو بذلك يعدد المؤسس الفعلي "للنزعة القومية" التي طرحت في أوربا خلال القرنين الـ 18 والـ 19 والتي انتهت إلى تأسيس الدول القومية في كل من ألمانيا وإيطاليا، وسابق للطرح القومي العربي في القرنين الـ 19 والـ 20.

كما استنبط من دراسته للتاريخ الإسلامي فن النظم انطلاقا من نظام الخلافة ومراتب الملك والسلطان وألقابها، إلى تجيش الجيوش؛ وصولا إلى نطاق العلاقات الدولية التي تحكم طبيعتها القوة في نظره.

لقد توصل ابن خلدون من خلال غوصه في كنه إنجازات الشعوب الحضارية فراح يبرز أسرار نشوء العمران البشري، عناصر قيام الدول ومراحل تقدمها وأسباب انهيارها، وما واكبها من تطور للنظم من الجمود إلى الحركة، ومن التراجع إلى التقدم راسما لذلك قاعدة علمية ثابتة تقوم على منحنى بياني ينطلق من التأسيس، إلى ذروة العطاء الحضاري مرورا بمرحلة الانهيار فالسقوط، مجسدا

الحقيقة القرآنية في قوله تعالى " إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرحٌ مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس".[4]

فسنة التدافع عنده تستوعب سائر ما يحدث في العمران حسب النواميس التي تسيره.[5]

فجعل " فن التاريخ " من هذا المنطلق علما اجتماعيا، باعتباره محاولة منظمة لمعرفة وتحقيق الحوادث الماضية عن طريق ربط الحادثة بالأخرى والكشف عن مختلف تأثيراتها على تشكيل ومسيرة الحضارة الإنسانية، مقدما في الأخير التفسير والتأويل والحكم عليها، باستنطاق النص كونه يمثل رؤية واقعية تحقق منطق الزمن الذي تبرز فيه ملامح العصر وبيئته وبذلك يتمكن المؤرخ في نظره من صنع معرفة علمية من الماضي الإنساني أطلق عليها هو مصطلح "العمران البشري والاجتماع الإنساني" .

لقد توصل ابن خلدون إلى تأسيس مدرسة تاريخية جديدة في نطاق تطور العلوم عند العرب إذ شكك في الوقائع والأرقام رافضا مسبقا التسليم بكل ما قدمه سبقوه من الرواة والمؤرخين، لأن العقل البشري في نظره لا يتقبل بالبديهة ما لا يتوافق والمنطق، ليورد مثلا واقعيا عن ذلك بالقول " وإن فحول المؤرخين في الإسلام قد استوعبوا أخبار الأيام وجموعها.. وخلطها المتطفلون بدسائس من الباطل، وهموا فيها أو ابتدعوها بزخارف من الروايات المصطنعة لفقوها.. واقتفى تلك الآثار الكثير ممن بعدهم واتبعوها، وأدوها إلينا كما سمعوها، ولم يلاحظوا أسباب الوقائع والأحوال.. فالتحقيق قليل، وطرف التنقيح في الغالب كليل.. والناقل إنما هو يملي وينقل، والبصيرة تنقد الصحيح.. والعلم يجلو لها صفحات الصواب".[6]

ويخلص في الأخير إلى الحكم على الكثير من الكتابات التاريخية بالقول: "ثم لم يأت من بعد هؤلاء إلا مقلد وبليد الطبع والعقل، ينسج على ذلك المنوال، ويحتذى منه بالمثال " ويغفلون أمر الأجيال الناشئة في ديوانها.. ثم إذا تعرضوا لذكر الدولة

نسقوا أخبارها نسقا، محافظين على نقلها وهما أو صدقا .. فيبغى الناظر متطلعا بعد إلى افتقاد أحوال مبادئ الدول ومراتبها، مفتشا عن أسباب تزاحمها أو تعاقبها، باحثا عن المقنع في تبانيها أو تناسبها".[7]

وانطلاقا من هذا المنهج النقدي البناء، ألف كتابه الذي اشتهر به "كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر" الذي جاء متميزا في مقدمته، مفصلا لأحوال الدول وطبيعة عمرانها وتفاعل الإنسان مع هذه البيئات المختلفة. فكان حريا بأن يعتمد رسميا كرائد ومؤسس ل "علم الاجتماع" الذي تأخر العالم القديم في معرفته إلا في غير ذاك الزمان، ففاز بحق سبق التأسيس له، والشهرة به .

أهمية العلاقة بين بيئة المؤرخ وطبيعة كتاباته التاريخية:

يعد المؤرخ حجر الأساس لأي عمل علمي يجعل من الأحداث المتسلسلة الماضية والحاضرة فعلا حيا يعيشه الفرد من خلال الدروس والعبر التي يستنبطها منه. فهو ينطلق من واقعه وبيئته ليبرز الظواهر ويفسرها اعتماد على اتساع أفقه، وقدراته العلمية، فيعللها على ضوء التاريخ مستخلصا النتائج التي يصيغها في قوانين اجتماعية بربط الحوادث بعضها ببعض ارتباط السبب بالمسبب، وقياس الماضي بمقياس الحاضر، مع مراعاة البيئة وطبيعة العمران الذي يمثل مدنية الدولة أو الأمة أو الحضارة المؤرخ لها.[8]

وذلك كله انطلاقا من تجربته الريادية في الدفع قدما بهذا العلم للتطور أو بوضعه لأسس المدرسة التاريخية العربية الإسلامية متميزة.

لقد اتخذ ابن خلدون من مسيرة حياته الذاتية كعالم ورجل دولة نموذجا لتجربة عامة أكثر اتساعا وشمولية، وقد عبر عنه بالقول:

" إن العزم على كتابة التاريخ إنما هو حجز الإنسان مصيره بالبعد السياسي والوعي بأن يكون موضوعا فعالا".[9]

فاهتمامه بالتأريخ لدول المغرب، وابتعاده عن الحياة السياسية ومناصب السلطة في مرحلة ما من حياته، جعلته ينكب على دراسة الأحداث وتداعياتها عبر القرون التي سبقت قرنه، بل البعض من هذه الأحداث كان هو الشاهد عليها، أو الفاعل فيها أو القائم عليها، فكان المؤرخ الحاذق التي وظف بيئته، وحياته الخاصة في تحويل التاريخ إلى علم حي قائم بين ظهرانيه، يؤثر فيه ويتأثر به.[10]

لقد عايش مؤرخنا أحداث حبلى تزامنت مع بداية أفول شمس الحضارة العربية الإسلامية فيما اصطلح على تسميته "بعصر الانحطاط"، فكان من مظاهره ضعف الأسر الحاكمة، وصراعها الداخلي القائم على المؤامرات والحروب العبثية التي لا طائل منها سوى النزاع على الرياسة، وهو الواقع الذي عاينه بنفسه فعانى منه أيما معاناة، على اعتبار أن المؤرخ أكثر تأثرا من غيره في هذا الجانب بالذات، وليس أدل على ذلك من قوله "فإذا ذهب الأمل بالتكاسل، وذهب إليه ما يدعو إليه من الأحوال وكانت العصبية ذاهبة بالغلب الحاصل عليهم، تناقص عمرانهم وتلاشت مكاسبهم ومساعيهم، وعجزوا عن المدافعة عن أنفسهم".[11]

لقد سطر العلامة ابن خلدون لنفسه أطرا منهجية يوظف فيها المؤرخ بيئته وواقعه في الكتابة التاريخية من خلال ما يلي:

1- أن يتجنب المؤرخ التشيع للآراء وتجسيد استقلالية فكره وموقفه، بتجنبه التحيز للآراء والمذاهب، بل يكون مبدأه تقصي الحقائق مهما كانت منطلقاتها وأطرافها وتأثيراتها مما يقوده حتما إلى الموضوعية التي تعد رأس مال المؤرخ أو غيره ممن يشتغلون في شتى الفنون العلمية الأخرى.

2- تبني الروح النقدية للنص ولصاحبه فيما يعرف بمصطلح الجرح والتعديل، وحتى يبرز عبقريته في التأصيل للمدرسة التاريخية العربية الإسلامية، بأن الرواية قد تصلح في العلوم الشرعية مثلاً، ولكن قد تدحض غالبا في وجود أدلة مادية تثبت مجانبة راوي الحدث للحقيقة، فيرى أن طبيعة "التاريخ" تتميز

بالحركة والنمو، عكس بعض العلوم النقلية الأخرى، فهو يقدم البديل العملي الذي يعكس حقيقة الحدث فعليا، انطلاقا من الواقع والبيئة بالقول: "وذلك أن أحوال العالم والأمم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر، إنما هو اختلاف على الأيام والأزمنة وانتقال من حال إلى حال ويكون ذلك في الأشخاص والأوقاف والأمصار".[12]

3- اعتماد الموضوعية: بالابتعاد عن المنافع المعنوية والمادية المغرية، وفي مقدمتها المؤرخ نفسه عن المنافع الشخصية التي تأتي عادة من أصحاب الجاه والسلطة، وهو ما يحرجه ويجعله يجانب الحقيقة، فيتجاهل أخطائهم ويثني عليهم بما ليس فيهم وهنا حسبه تغيب رسالة المؤرخ.

4- فقه الواقع وسعة الاطلاع المعرفي، الذي يعد زاده بلا منازع، فهي أدواته ووسائله التي يميز فيها بين صدق الخبر من عدمه، واقفا على حقائق الظواهر الطبيعية والاجتماعية التي يقوم بدراستها، وتنبع حيثياتها والتي يقدمها هو في قالب جديد تسمح له بصياغة النتائج المتوصل إليها وفيها يقول: "فربما يسمع السامع كثيراً من أخبار الماضيين ولا يتفطن لما وقع من تغير الأحوال وانقلابها، فيجربها لأول وهلة على ما عرف ويقيسها بما شهد، وقد يكون الفرق بينهما كثيرًا فيقع في مهواة من الغلط".[13]

قد تطلع العلامة ابن خلدون ليؤسس للتاريخ منهجا خاصا يسير على نسقه انطلاقا من حالة التغير الدائم التي يعرفها العمران حسب القوانين الطبيعة التي تسيره، ليدفع الأجيال التي تلت جيله تكمل المهمة والمسيرة التي سطرها، بناء على ما توفر لديه من قدرات فذه أهلته لريادة هذا المدرسة التاريخية المتميزة.

معالجة ابن خلدون لمادته التاريخية:(الدولة الحمادية ونظمها بالمغرب الأوسط نموذجا).

ولتطبيق المنهج الخلدوني علميا، ارتأينا أخذ الدولة الحمادية ونظمها المختلفة كنموذج لدول المغرب الأوسط لاعتبارات متعددة.

1- لاهتمام ابن خلدون بتاريخ المغرب أكثر من غيره بالنظر إلى عنوان مصنفه "تاريخ العبر".

2- ربط النظري بالعملي بإسقاط الدراسة على الواقع المكاني الذي يسمح للمؤرخ بتفسير الظواهر والحوادث بناء على متوفر لديه من معطيات في هذا المجال.

3- التنازع الذي يقود إلى تضعضع الدول وتفككها حيث قامت الدولة الحمادية على أنقاض الدولة الزيرية رغم انتمائها لنفس العصبية القبلية "قبيلة صنهاجة".

4- وقع ما أنجزته وساهمت به الدولة الحمادية من نظم وعمران في الحضارة العربية الإسلامية خصوصا والحضارية الإنسانة عموما.

5- احتفال الجزائر هذه السنة (2007) بمرور ألف سنة على تأسيس قاعدة هذه الدولة (قلعة بني حماد) سنة 1007م، إذ تعد هذه الدولة واحدة من القوى السياسية البارزة التي قامت في بلاد المغرب الأوسط في الفترة الممتدة بين (405 – 547هـ/ 1014 – 1152م).

لقد ارتبط اسم هذه الدولة باسم مؤسسها"حماد بن بلكين" (405 – 419هـ/ 1014 – 1028م).

إذ تمكن من القيام بحركة انفصالية عن الدولة الأم "الدولة الزيرية" بإفريقية (تونس حاليا)، بعد أن حقق شهرة عسكرية كبيرة، جراء وضع حد لغارات وتحركات قبيلة زناته في الجزء الغربي من الدولة الزيرية الصنهاجية، واستطاع أن يؤسس قاعدة له بالمغرب الأوسط منذ سنة 398 هـ/ 1007م.

فكانت القلعة التي اشتهرت باسمه النواة الأولى لتأسيس "دولة بني حماد" والتي اتخذت عاصمة لها منذ سنة (405هـ/ 1014م).[14]

ليتحدد إطارها السياسي من مرسى الخرز وبونة شرقا، إلى مشارف وهران وتلمسان غربا، ومن بجاية وجزائر بني مزغنة شمال، إلى بسكرة ووركلا (ورقلة) جنوبا، على عهد أغلب ملوكها، مع توسعها في من فترة لأخرى على حساب الزيريين إلى تونس شرقا، وعلى حساب مضارب قبيلة زناتة وصولا إلى مدينة فاس غربا.

هذه المتغيرات التي حدثت مع بداية القرن الخامس الهجري، يراها ابن خلدون حركة طبيعية يشهدها المسار التاريخي للدول، وهي تصب في إطار المنحنى البياني الذي يسري على كل شعوب البشرية بدون استثناء فيجعلها بذلك قاعدة من قواعد منهجه التاريخي، فيقول: "وقد ينتهي الانقسام إلى أكثر من دولتين وثلاث.. كما وقع.. في ملك صنهاجة بإفريقية.. وهكذا شأن كل دولة لابد وأن يعرض فيها عوارض الهرم.. فيقتسم أعياصها أو من يغلب رجال دولتها الأمر، وتتعدد فيها الدول".[15]

6 – ظاهرة الخروج (الحرابة، البغي) أي الثورات التي يباشرها المتمردون على أنظمة الحكم عادة لدوافع سياسية أولا، أو دوافع اجتماعية واقتصادية ثانيا.

فهذه الظاهرة عرفتها دول المغرب الأوسط عموما و" الدولة الحمادية" خصوصا، فقد أورد ابن خلدون أسماءً للكثير من الثائرين على الحكم الحمادي، إما لطبيعة الشدة والغلظة التي تميز بها أمراء القلعة في إدارة شؤون ملكهم لتعدد الزعامات القبلية، أو لطبيعة التركيبية المتباينة لبطون القبيلة الواحدة التي شكلت ديمغرافية المغرب الأوسط في هذه الفترة، ومنها ما ذكره عن ثورة أهل بسكرة بالقول: "وكان أهل بسكرة لما قتل بلكين [16] مقدمهم جعفر بن أبي رمّان خلعوا طاعة آل حماد واستبدوا بأمر بلدهم".[17]

فنمط العصبية التي تنبني عليها شوكة الدولة في بداية تأسيسها سرعان ما تتضعضع عندما يحيط بها هادمان هما: الترف والقهر، " فيقلب غيرته منهم إلى الخوف على ملكه، فيأخذهم بالقتل والإهانة.. فتفسد عصبية صاحب الدولة.. فتنحل عروتها وتضعف ".[18]

وهي قاعدة أثبتها ابن خلدون في كل النماذج التي قدمها عن الدول التي قامت ببلاد المغرب أو غيره.

7 – إبرازه لنظم الدول التي يؤرخ لها في خضم حديثه عن توالي الأحداث السياسية، ففي حديثه عن الدولة النموذج "الدولة الحمادية".

يدرج جملة من المصطلحات السياسية المستخدمة في هذا المجال وصولاً إلى عصره (عهد ابن خلدون). منها: تحديد طبيعة الحكم الذي يقوم على نظام الإمارة والمستند إلى الوراثة حيث تؤول السلطة من الأمير إلى ابنه أو أخيه "وهلك حماد سنة تسعة عشر وأربعمائة، فقام بأمره ابنه القائد .."[19]، ويتمم عادة بالبيعة العامة التي بها يقدم الأمر نهائيا للأمير الجديد "وبايعوا بالبيعة العامة"[20].

نظام الوزارة: وهو منصب يوكل عادة إلى أفراد من الأسرة الحاكمة أو المقربين منهم، مهمتهم مساعدة الأمير أو الملك في إدارة شؤون السلطة مركزيًا. "وقام بالأمر من بعده – الناصر بن علناس – واستوزر أبا بكر أبي الفتوح..".[21]

النظام الإداري: ويبرز فيه تقسيم الدولة الحمادية إلى مقاطعات تجسيدًا للنظام اللامركزي، ويتولى هذه المناصب الإدارية أفراد من الأسرة غالباً، وهو ما يبرز واقعيًا المحافظة على تماسك ووحدة العصبية القبلية التي استندت إليها الدول عمومًا في هذه الفترة الزمنية التي يؤرخ لها ابن خلدون "وعقد – أي الناصر بن علناس – على المغرب لأخيه كباب وأنزله ملیانة، وعلى حمزة لأخيه رومان، أو على نقاوس لأخيه خزر.. وعلى قسنطينة لأخيه بلبار، وعلى الجزائر ومرسى الحجاج لابنه عبد الله، وعلى آشير لابنه يوسف..".[22]

الجهاز العسكري: وتمثل في جيش تراوح تعداده ما بين الثلاثين إلى الأربعين ألف مجند إضافة إلى المساندة والدعم الذي يتلقاها هذا الجيش النظامي من القبائل المتحالفة مع قبيلة صنهاجة التي تنبني عليها عصبية الدول، ويتولى قيادته قائد أعلى مهمته الإعداد والتعبئة، وعادة يترأسه في خرجاته المصيرية الأمير أو الملك.

أما المظاهر الحضارية: فيبرزها ابن خلدون بالنسبة لعهد كل أمير.

بدءًا بالعمارة المتميزة للحضارة الحمادية والتي لازلت آثرها ماثلة في كل من قلعة بني حماد وبجاية إلى يومنا هذا، منها ما أنجزه حماد في عهده "واختط مدنية القلعة.. وتم بناؤها وتمصيرها على رأس المائة الرابعة، وشيد بنيانها وأسوارها، واستكثر فيها من المساجد والفنادق، فاستبحرت في العمارة واتسعت بالتمدن، ورحل إليها من الثغور.. طلاب العلوم وأرباب الصنائع..".[23]

ونفس النسق الحضاري ينطبق على مدينة بجاية التي اختطها "الناصر بن علناس" ومصّرها ما بين سنتي 460 – 461 هـ..

وفي سنة ستين افتتح جبل بجاية.. فاختط به المدينة وسماها الناصرية.. وبنى بها قصر اللؤلؤة وكان من أعجب قصور الدنيا.. فبنى المباني العجيبة المؤنقة، وشيد المدائن العظيمة..".[24]

ومن القضايا البارزة التي تفرد بها ابن خلدون في نطاق كتابته ومنهجه التاريخي، ما أصدره في أحكام قاسية وغريبة في حق العرب –يكون قد اتخذ القبائل الهلالية نموذجا لذلك – فربط بينهم وبين الخراب الذي أصاب الحواضر التي حلوا بها.

فهو يبرزها في "مقدمته" باعتبارها إطارًا نظريًا لكل ما يؤرخ له في "كتاب العبر"، وفي هذا يقول " وقد يحصل لهم – أي العرب – في بعض الأحيان غلب على الدول المستضعفة كما في المغرب لهذا العهد، فلا يكون مآله وغايته إلا تخريب ما

يستولون عليه من العمران".[25] ويورد لها إثباتًا واقعيًا بالحملة الهلالية الأولى التي مست إفريقية سنة 440 هـ، فيقول "وتقدموا إلى البلاد وأفسدوا السابلة والقرى.. وطال عيثهم في البلاد وإضرارهم بالرعايا إلى أن خربت إفريقية..".[26]

وعن دخولهم المغرب الأوسط، واكتساحهم لضواحي قلعة بني حماد "وكبس العرب في أيامه –باديس بن المنصور – القلعة وهم غازون، فاكتسحوا جميع ما وجدوه بظواهرها".[27]

هذه الشواهد وغيرها، والتي حاول ابن خلدون التدليل عليها لإبراز واقع تاريخي شهده بلاد المغرب بأخذه من وجهة نظر سلبية، وقد يكون تبنيه لهذا الموقف مرده طبيعة السلطة التي كان خاضعا لها، والتي فرضت عليه سلوكه لهذا المنحى.

رغم أن النصوص الشرعية تناقض ما ذهب غليه العلامة ابن خلدون في قوله تعالى: ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر﴾.[28]

وقوله أيضًا ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ﴾.[29]

وهو ما تثبته الشواهد التاريخية لمساهمة العرب الحضارية قبل الإسلام وبعده، وما حضارة سبأ وحمير، وحضارتي مكة ويثرب، إلا أدلة تدحض ذلك، ناهيك عن الإنجازات العمرانية والعلمية التي تلت ظهور الإسلام وتغييره لحال العرب فكانت الحضارتين الأموية والعباسية كأبرز الشواهد التي لا يرقى إليها ما مجال الشك.[30]

إذن ما يمكن أن يبرر لهذا الموقف الخلدوني، بعض المحطات التاريخية للمغرب الإسلامي مردها إلى الواقع والمسار الذي دخلته الحضارة العربية الإسلامية على عهده وهي ظاهرة الانحطاط حيث حاول مؤرخنا تحميل مسؤولية البذر لها

ووضع لبناتها للقبائل الهلالية، وهو ما ينافيه الواقع التاريخي، بمختلف الشواهد التي أوردنها، وفي مقدمتها الانقسامات والصراعات التي شهدتها الأسر الحاكمة في أعلى هرم السلطة ومنها ما وقع لملك صنهاجة التي انقسم ملكها بين دولتين الدولة الزيرية في إفريقية والحمادية بالمغرب الأوسط، فكانت له تداعياته حتما على المستويين المتوسط والبعيد، حيث خلق حالة من التآكل الداخلي سارت مساره الرعية ممثلة في الفسيفساء القبلية المشكلة لهذه الدولة أو تلك.

لقد عمل العلامة ابن خلدون على التموقع في مكان ما يسمح له بالنقد الذاتي لواقع أمته في وقت كانت تمر فيه بأحلك أيامها، فقدم لنا منهجا خاصا للنقد التاريخي جاعلاً منه منطلقًا للتأسيس لمرحلة جديدة من حياة الأمة، تسمح لها بالحفاظ على ما تبقى من مكتسباتها، وتفتح لها أفاقا جديدة تسير بها نحو مستقبلها، والذي يستشرفه ويحذر من مخاطر الولوج فيه بدون عتاد وعدة.

لقد امتزجت في وعي ابن خلدون تجربته وتجربة أمته فعبر عنها بخيال ومنطق الفيلسوف، وبحدس وحس المؤرخ، فجمع في كتاباته بين الذاتي والموضوعي، فتوجه نحو إعادة قراءة وكتابة التاريخ وفق تجربته الشخصية من جهة، وواقع عصره من جهة أخرى. لقد عمل على تأكيد صحته الجانب النظري الذي ورد في "مقدمته" فحاول أن يثبت صحة ما نقله وما ذهب إليه وفق منهج خاص، فأسس لعلم لا غنى للمؤرخ عنه ألا وهو علم "العمران البشري والاجتماع الإنساني".

الهوامش والمراجع:

1- عبد الرحمن بن خلدون – المقدمة – مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر – بيروت لبنان – ط 2 – 1979، ص 12.

2- محمد الصادق عفيفي – تطور الفكر العلمي عند المسلمين – مكتبة الخانجي – القاهرة – مصر. ط 1977 – ص 305.

3- ابن خلدون – نفسه – ص.ص 271، 272.

4- الآية 140 من سورة آل عمران.

5- محمد أحمد ترحيني – المؤرخون والتأريخ عند العرب – دار الكتب العلمية – بيروت لبنان، بدون طبعة ولا تاريخ، ص 110.

6- ابن خلدون – نفسه – ص 3.

7- ابن خلدون – نفسه – ص ص 4،5.

8- عفيفي – نفسه – ص 315.

9- ترحيني – نفسه – ص 99.

10- عبد الرحمن عبد الله الشيخ – المدخل إلى علم التاريخ – دار المريخ – الرياض – السعودية، ط1984 – ص128.

11- ابن خلدون – نفسه – ص 620.

12- نفسه – ص 46.

13- نفسه – ص.ص 46 – 47.

14- انظر اسماعيل العربي – دولة بني حماد، سلوك القلعة وبجاية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر ط 1980 – ص 89 وما بعدها.

وابراهيم العدوي، بلاد الجزائر تكوينها الغسلامي والعربي، مكتبة الأنجلو – مصرية – القاهرة – مصر ط1 – 1970، ص 173.

15- ابن خلدون – نفسه – ص.ص 519، 520.

16- هو بلكين بن محمد أحد ملوك الحماديين (447 – 454هـ/1055 – 1062م) تميز بحزمه في الحكم، وشجاعته وإقدامه، عرف كيف يوجه الأحداث لصالحه بتحالفه مع قبائل بني هلال ويدمجهم في الحياة العامة لدولته على عكس سابقيه، بلغت الدولة الحمادية في عهده أقصى حدود توسعها غربا وصولا إلى مدينة فاس

انظر: اسماعيل العربي – نفسه، ص.ص 144، 142 ورشيد بوربيعة، موسى لقبال وآخرون – الجزائر في التاريخ – ج3 – المؤسسة الوطنية للكتاب – الجزائر – ط 1984 – ص.ص 208، 206.

17- عبد الرحمن بن خلدون – كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، المجلد 11، دار الكتاب اللبناني – بيروت – لبنان – ط 1968، ص 354.

18- ابن خلدون – المقدمة – ص 522.

19- ابن خلدون – العبر – ص 352.

20- نفسه – ص 352.

21- نفسه – ص 353.

22- نفسه – ص. ص 353 – 354.

23- نفسه – ص 350.

24- نفسه – ص 357.

25- ابن خلدون – المقدمة – ص 269.

26- ابن خلدون – العبر – المجلد 11 – ص 326.

27- نفسه – ص 326.

28- الآية 110 من سورة آل عمران.

29- الآية 09 من سورة المائدة.

30- انظر خالد كبير علال – أخطاء المؤرخ ابن خلدون في كتاب المقدمة – من سلسلة دراسات نقدية تحليلية هادفة – دار الإمام مالك للكتاب ط1 – 2005، ص 90 وما بعدها.